

له، ولا يحذرون منه بل هو عندهم هدر لا يعابون به، وهو كائن لا محالة، وواقع لا ريب فيه ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره، وفي قبضته، وتحت طي علمه، وهو المتصرف فيها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلا هو.

## تفسير سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾﴾ .

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

﴿كَذَلِكَ يُوحىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾

﴿كَذَلِكَ يُوحىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء من قبلك ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي في انتقامه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله. روى الإمام مالك عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ «أحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيتَه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ لينعصر عرقاً. أخرجاه في الصحيحين، ولفظه للبخاري.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: 9] ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْ قَوْقِحِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي

الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْ قَوْقِحِهِنَّ﴾ أي فرقا من العظمة. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله جل جلاله: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرَسَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: 7] وقوله جل جلاله ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إعلام بذلك وتنويه به.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني المشركين ﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾ أي شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدّها عدداً، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ

فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي واضحاً جلياً بيناً ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة منها أنه ﷺ وقف بالحزورة في سوق مكة وقال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت» رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة. وقوله جل جلاله ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجُمُعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّفَافِينِ﴾ [التناجين: 9] أي يغيب أهل الجنة أهل النار، وكقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٦﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ سَعَىٰ وَسَعِيدٌ ﴿١٥﴾﴾ [هود: 103-105].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي إما على الهداية، وإما على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة. ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. روى ابن جرير أن موسى عليه السلام قال: يا رب، خلقتك الذين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار، لو أدخلتهم كلهم الجنة، فقال: يا موسى، ارفع درعك فرفع، قال: قد رفعت، قال: ارفع فرقع، فلم يترك شيئاً، قال: يا رب قد رفعت، قال: ارفع قال: قد رفعت إلا ما لا خير منه، قال: كذلك أدخل خلقي كلهم في الجنة إلا ما لا خير فيه.

﴿أَرَأَيْتُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِينَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى منكرأ على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فإنه القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿١٠﴾

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ، كقوله جل وعلا: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59] وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي الحاكم في كل شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع إليه في جميع الأمور.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي من جنسكم وشكلكم منة عليكم وتفضلاً، جعل من جنسكم ذكراً وأنثى ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أي يخلقكم فيه، أي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذروكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلًا بعد نسل من الناس والأنعام ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾  
 ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو المتصرف الحاكم فيهما ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿١٣﴾

يقول تعالى لهذه الأمة ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح ﷺ، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: 7] والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وفي الحديث «نحن معشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد» أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله جل جلاله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48] ولهذا قال تبارك وتعالى هنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي وصى جميع الأنبياء بالاتلاف

والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف. وقوله جل جلاله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد.

﴿وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (٤١)

﴿وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة. ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً. وقوله جلت عظمته ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مرِيب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَتَّسَمَّ كَمَا أُورِثُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُورِثُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٤٢)

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة، كل منها منفصلة عن التي قبلها، حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه. وقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه. وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني المشركين فيما اختلفوه فيه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان. وقوله جل وعلا ﴿وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم. وقوله: ﴿وَأُورِثُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله. وقوله جلت عظمته ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي هو المعبود لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ﴾ أي نحن برآء منكم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِنَّا أَعْمَلْنَا وَأَنَا بَرِيءٌ مِّنْكُمْ وَمَا نَعْمَلُونَ﴾ (٤١). وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لا خصومة، وذلك قبل نزول آية السيف، فهذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة. وقوله عز وجل ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي يوم

القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: 26] وقوله جل جلاله ﴿وَالَّذِي الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِيشٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [١٦]

يقول تعالى متوعداً الذي يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿جَحِيشٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي يوم القيامة.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [٧]

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل والإنصاف، وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25] وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [٧] ﴿أَلَّا تَقْفُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ [٨] ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7-9] وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وترهيد في الدنيا.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ آلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لِنِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [٨]

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وإنما يقولون ذلك تكديماً واستعداداً وكفراً وعناداً. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي كائنه لا محالة فهم مستعدون لها، عاملون من أجلها. وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره فناده فقال: يا محمد، فقال له رسول الله ﷺ نحواً من صوته «هاؤم» فقال له: متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ويحك إنها كائنه، فما أعددت لها؟» فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت». فقوله في الحديث «المرء مع من أحب» هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها. وقوله تعالى: ﴿آلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها ﴿لِنِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي في جهل مبین، لأن الذي خلق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩)

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه البر والفاجر، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [مورد: 6]. وقوله جل جلاله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي لا يعجزه شيء.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي عمل الآخرة ﴿نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ﴾ أي تقويه ونعيته على ما هو بصدده، ونكثرت نماءه، ونجزية بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همّ البتة بالكلية حرمة الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه. وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١)

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لحي بن قحفة يجر قصبه في النار» لأنه أول من سبب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام. لعنه الله وقبحه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ما تقدم من الانظار إلى يوم المعاد ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي شديد موجه في جهنم وبئس المصير.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢)

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي في عرصات القيامة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم في هذا الخوف والوجل: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٢١﴾ فأين هذا من هذا؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومسكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله تعالى لهم به. وقوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطوني، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم تصروني، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يعمل حسنة نزيد له فيها حسنا أي أجرا وثوابا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: 40] ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر ويضاعف ويشكر.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَبَدَّلَ اللَّهُ بِكَلِمَتِهِ ءِتَنَّهُ عَلَيْهِمُ يَدَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي لو افتريت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي يطبع على قلبك، وسلبك ما كان آتاك من القرآن. وقوله جلت قدرته ﴿وَبَدَّلَ اللَّهُ بِكَلِمَتِهِ ءِتَنَّهُ عَلَيْهِمُ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يحققه ويشبهه ويبينه ويوضحه بكلماته، أي بحججه وبراهينه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا، ورجعوا إليه: إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: 110] وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ «للهُ تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس

منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح ﴿ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعْلُونَ ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقتتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

﴿ وَتَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَبَرِّدُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

﴿ وَتَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم، أو يستجيبون للحق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: 36] والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى: ﴿ وَبَرِّدُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۗ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ

نَصِيرٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً، وكان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك ﴿ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۗ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، كما جاء في الحديث «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٨﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله عز وجل: ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم: 49] وقوله جل جلاله ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي هو المتصرف لخلقها بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ

نَدِيرٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة، وسلطانة القاهرة ﴿ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ

فِيهِمَا ﴿٢٩﴾ أَي ذرأً فِيهِمَا، أَي فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٢٩﴾ مِنْ دَائِبَةٍ ﴿٢٩﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَسَائِرَ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَلِغَاثِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَأَنْوَاعِهِمْ، وَقَدْ فَرَّقَهُمْ فِي أَرْجَاءِ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. ﴿٣٠﴾ وَهُوَ ﴿٣٠﴾ مَعَ هَذَا كُلِّهِ ﴿٣٠﴾ عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصْرَ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلَ الْحَقَّ.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أَي مَهْمَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الْمَصَائِبِ، فَإِنَّمَا هِيَ سَيِّئَاتٌ تَقَدَّمَتْ لَكُمْ ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أَي مِنَ السَّيِّئَاتِ، فَلَا يَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا، بَلْ يَعْفُو عَنْهَا. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصْبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ حَتَّى الشُّوْكَةُ حَتَّى يَشَاكُهَا».

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٣﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ، وَسُلْطَانُهُ تَسْخِيرَهُ الْبَحْرَ لِتَجْرِي فِيهِ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ، وَهِيَ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ أَي كَالْجِبَالِ.

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أَي الَّتِي تَسِيرُ فِي الْبَحْرِ كَالسَّفِينِ لَوْ شَاءَ لَسَكَنَهَا حَتَّى لَا تَتَحَرَّكَ السَّفِينُ، بَلْ تَبْقَى رَاكِدَةً لَا تَجِيءُ وَلَا تَذْهَبُ، بَلْ وَاقِفَةٌ عَلَى ظَهْرِهِ، أَي عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ فِي الشَّدَائِدِ ﴿شَكُورٍ﴾ فِي الرِّخَاءِ.

﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ يَمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ يَمَا كَسَبُوا﴾ أَي وَلَوْ شَاءَ لَأَهْلَكَ السَّفِينُ وَغَرَّقَهَا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا الَّذِينَ هُمْ رَاكِبُونَ فِيهَا ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أَي مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَلَوْ أَخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ كُلَّ مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ.

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحْصِرٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُبَدِّلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحْصِرٍ﴾ أَي لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْ بَأْسِنَا وَنَقْمَتِنَا، فَإِنَّهُمْ مَقْهُورُونَ بِقُدْرَتِنَا.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنِعْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَقَّرًا لِشَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزُّهْوَةِ وَالنَّعِيمِ الْفَانِي بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا

أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنَجِّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٦﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنية فانية زائلة، لا محالة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا، وهو باق سرمدى، فلا تقدموا الفاني على الباقي، ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات، وترك المحرمات.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٢٧)

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٢٧) أي سجيبتهم تقتضي الصفح والعتف عن الناس، ليس سجيبتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمت الله.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٢٨)

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي اتبعوا رسله، وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أعظم العبادات لله عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي لا يرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بأرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب منهم فالأقرب.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٢٩)

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٢٩) أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين، ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفواً، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته ﴿لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغْيُ اللَّهِ لَكُمْ﴾ [يوسف: 92] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله، كما صح ذلك في الحديث «وما زاد الله تعالى عبداً بغفو إلا عزاً» وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١)

﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم.

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ أي الحرج والعنت ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي يبدؤون الناس بالظلم ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي شديد موجع .

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ أي صبر على الأذى، وستر السيئة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أي لمن حق الأمور التي أمر الله بها، أي لمن الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل .

﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَجْهٍِ مَنْ بَعْدَهُ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمه أنه ما شاء كان، ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن، فلا موجد له، وأنه من هده فلا مضل له، ومن يضل الله فلا هادي له، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَجْهٍِ مَنْ بَعْدَهُ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الكهف: 17]. ثم قال تعالى مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يَقُولُوكَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ كما قال عز وجل: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَى النَّارِ قَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِمَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنَ الْكُفْرِ مَا كَانُوا يَحْفَظُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَمَدُّوا لَمَّا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الانعام: 27، 28].

﴿ وَتَرْتَهُمْ يَبْعَثُونَ عَلَيْهِمْ حَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ وَتَرْتَهُمْ يَبْعَثُونَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على النار ﴿ حَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ ﴾ أي الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى: ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ ذليل، أي ينظرون إليها مسارقة خوقاً منها، والذين يحذرون منه واقع بهم لا محالة وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿ إِنَّ الْخَسِرِينَ ﴾ أي الخسار الأكبر ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم في دار الأبد وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أحبائهم وأصحابهم وأهاليهم وقربائهم فخسروهم ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ أي دائم سرمدى أبدي، لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها .

﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾  
 ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس له خلاص .

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له فقال: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع، ولا مانع ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم، وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقوله جل وعلا ﴿إِن عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بها ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ﴾ يعني الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي جدد ونقمة وبلاء وشدة ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ يجحد ما تقدم من النعم، ولا يعرف إلا الساعة الإهنة، فإن أصابته نعمة أشرب ويطر، وإن أصابته محنة يشس وقنط .

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْتَا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذُكُورَ ﴿٤٩﴾﴾

يخبر الله تعالى أنه خالق السماوات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْتَا﴾ أي يرزقه الإناث فقط، قال البغوي: ومنهم لوط ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذُكُورَ﴾ أي يرزقه البنين فقط . قال البغوي: كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، لم يولد له أنثى .

﴿أَوْ يَرْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِئْتَا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَوْ يَرْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِئْتَا﴾ أي ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أي من هذا أو

هذا، قال البغوي: كمحمد ﷺ ﴿وَجَعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أي لا يولد له. قال البغوي: كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه النوعين ذكراً وإناثاً ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد له ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿وَقَدِيرٌ﴾ أي على ما يشاء من تفاوت الناس في ذلك.

﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٌ عَبِيدٌ﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتماهى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى ﷺ، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً» ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في دار الدنيا. وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل وغيره من الملائكة على الأنبياء ﷺ. ﴿إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٌ﴾ فهو عليهم خبير حكيم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَهْتَدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَرْنَا﴾ يعني القرآن ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [نصفت: 44] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهْتَدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الخلق القديم، ثم فسره بقوله تعالى:

﴿صِرَاطٍ اللَّهُ أَلَدَىٰ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَىٰ اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾

﴿صِرَاطٍ اللَّهُ﴾ أي شرعه الذي أمر به الله ﴿أَلَدَىٰ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿أَلَا إِلَىٰ اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.